

التنفيذ القسري للعقوبات ببلاد الأندلس على عهد الرحمن الثالث

(300-350هـ / 912-962م) بين مشروعية العقوبة والتجاوزات الشخصية

The forced implementation of the sanctions in Andalusia under the reign of Rahman III (300-350 / 912-962) between the legality of punishment and Personal excesses

\* ~~~~~ أ.د عبد القادر بوباية

P.BOUBAYA abdelkader

المشرف: أستاذ في تاريخ المغرب الإسلامي

قسم التاريخ وعلم الآثار - كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

البريد الإلكتروني: aboubaya@gmail.com

~~~~~ أ.ة. فتيحة تريكي

TRIKI.fatiha

طالبة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي

قسم التاريخ وعلم الآثار - كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية -

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة،

البريد الإلكتروني: fatiha\_triiki@yahoo.com

**Abstract :** *The “unsaid” in history of Muslim rulers in Al-Andalus appear as a forbidden topic in modern Arabic historical studies. Meanwhile starting new investigation with a psycholinguistics approach, the reader will be astonished at what has happened with some rulers in the issues of punishments, not legal punishment but a kind of evilness in the relationship of the ruler and his victim. Some of this rulers were very famous by theirs war efforts and by their acts in the development of both the state and the society. In the same time, there were very tolerant and caring about minorities, foreigners, deprived people and women. Abd-ar-Rahman III (912-961), the first caliph Al-Andalus, was one of this kind of rulers; he was the powerful Governor of Iberia and the Gardner of freedom and toleration in his land. However, he practiced some illegal punishment against some peoples by cruel acts mentioned by few texts, and this is the topic of this paper.*

**KEY WORDS:** *history; Muslim rulers; Al-Andalus; punishments*

**مقدمة:** لا مجافاة للحقيقة في اعتبار أنّ هناك عُفْلٌ بُجَاهِ نمط معين من المواضيع اصطُح عليه بالمسكوت عنه في التاريخ، وإنّ تتبع مظاهر سلوكيات مجتمع ما في فترة حكم الأمويين بالأندلس يُعد من معضلات الكتابة التي تعترض سبيل كل مُهتم لها، خصوصا إذا كان الحديث عن الظلم الاجتماعي والنفسي الذي مارسه الأسياد أو الحكام على محكوميه، لاسيما وأن معظم مؤرخي تلك الفترة انبروا على التدوين الرسمي لتأريخ الدولة، وانصبت جُل كتاباتهم على التأريخ السياسي والثقافي، والاهتمام بالجانب المشرق من تاريخهم في إنجازات الحكام ومشاريعهم الكبرى.

\* تاريخ استقبال المقال: 2017/06/22 تاريخ المراجعة: 2017/10/01 تاريخ القبول: 2017/10/08

إنَّ المتَّبِع لتاريخ الحكام في شقه المسكوت عنه في فترة حكم السلطة الإسلامية يجعل القارئ مذهولاً مما وقع بين يديه من أخبار تشمئز لها النفس البشرية ولاسيما لحكام وخلفاء وسلاطين عُرف عنهم الكثير من التسامح وخدمة الحضارة الإسلامية، وحب وتعظيم الناس لهم نظير الخدمات التي قدموها للمجتمع والبلاد، وحرصوا أن يظهرها بين رعيتهم بالمظهر الذي يروق في أعينهم تبعاً للعرف الاجتماعي، إلا أنَّ التاريخ لا يرحم حيث سجّل لهم زلاتهم وقبيح أفعالهم.

ولا يمكن لأي شخص أعمل فكره في شؤون التاريخ والسياسة أن يبقى غافلاً أو متجاهلاً للدور العظيم الذي جسّده الحكام والسلاطين بحكم امتلاكهم القوة المطلقة في سلب حرية الآخرين ونفي إرادتهم؛ فقد أضحى العنف مظهرًا من مظاهر التعبير عن وجود سلطتهم، ووقع اختيارنا على شخصية عبد الرحمن الناصر حاكم الأندلس أنموذجاً لمعالجة ظاهرة العنف الممارسة من طرفه، بمقاربة تاريخية تتقاطع فيها تحليلات اجتماعية ونفسية ودينية سياسية، ليس لأن عبد الرحمن الناصر كان الأكثر استبداداً وعنفاً في التاريخ الإسلامي أو تاريخ الأندلس على الأقل، وإنما لأنَّ هذه الشخصية جمعت بين التناقضات بين المشروع واللامشروع، وبين الحلال والحرام، وبين الأخلاقي والأخلاقي...، ولعل ما يزيد من صعوبة الموضوع تواطؤ الكتابات التاريخية وإحجامها عن تناول مثل هذه القضايا واكتفائها بذكر إشارات مقتضبة، وهو ما انتبه إليه الباحث إبراهيم القادري بوتشيش بقوله: "عدم قدرة المؤرخ العربي على الانفلات من سياج الإيديولوجية الرسمية للدولة التي تحتضنه، ومن ثم فإن كتابته عكست كل ألوان إيديولوجية الحاكم"<sup>1</sup>.

غير أنَّ القراءة المتأنية في ألوان مختلفة من العلوم من شأنها أن توفر لنا مادة طيبة تزيل بعض الضبابية عن الموضوع.

من المسلم به أن السلطان أو الحاكم من صلاحياته أن يراعي هيبته الدولة، وحسم كل ما من شأنه أن يضعف قوتها أو يُذهب شوكتها؛ فابن الفقيه يقر أن "السيد إذا قال لعبد افعل، وأمره بأمر فلم يفعل حسن لومه وعقابه...؛ فهو واجب"<sup>2</sup>.

تحدث ابن الفقيه عن مشروعية العقوبات في حق المخالفين والمدانين بفعل ما، وبالمقابل أيضا نبّه المشتغلين بأمور السياسة والأحكام السلطانية إلى آداب العقاب الذي أقرّه الشرع والقانون؛ فابن طباطبا يشدّد "على الملك أن ينظر في أمر القتل وإزهاق النفس؛ فيعلم أنه الحادث الذي لا حياة للحيوان بعده في الدنيا"<sup>3</sup>.

ولكن ما مدى وعي السلطة بدور المؤسسة العقابية في أداء مهامها دون الوقوع في تجاوزات ومظالم تضر بالفرد والمجتمع معا؟

لماذا تنفلت الأمور عن مسارها الطبيعي؟ وتبرّز تجاوزات السلطة بعبارة غضب السلطان؟ إنّ هذه الأسئلة تمتلك مشروعيتها في ظل غياب تفسيرات دامغة تزيل حيرة وتساؤلات المؤرخ الناظر بعين النقد والتمحيص

ومن أجل فهم المسألة أكثر سنوظف نصوصا تخص الفترة المدروسة؛ فعبد الرحمن الناصر لدين الله<sup>4</sup> الذي استطاع أن يجمع بين شخصية القائد العسكري المخنك والسياسي الداهية ورجل الدولة الأول، لم يحكم قبله من ملوك الإسلام مثل ما حكم، وهي الصفات التي لم يسبق أن اجتمعت في حاكم الأندلس من عهد جده الأمير عبد الرحمن الداخل؛ فقد عُرف عنه أنه كان كلفا بعمارة الأرض، وإقامة معالمها، وانبساط أمرها، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة، كما يكفيه فخرا أن ملكه "كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلاّ وفدت إليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية"<sup>5</sup> وصدقته التي أقرت بها المصادر في أوقات الأزمات والمجاعات على المساكين وأهل الفاقة<sup>6</sup>، وما إلى ذلك من فضائل ومحاسن.

ولكن تلك المواصفات والخصال لم تردعه عن ارتكاب أقبح المحظورات في تاريخ حكمه؛ فابن حيان يحتفظ لنا بنص بالغ الأهمية عن منكرات الناصر حيث قال: "إنه علق أولاد السودان في ناعورة قصره بدلا من الأقداس الفارغة للماء فأهلكهم"<sup>7</sup>.

وإنّ كانت نعوزنا المادة الخبرية حول نوع المخالفة أو حتى إن صحّ الجرم المقترف من طرف هؤلاء السودان؛ ففي أي خيانة تصنّف معاقبة الناصر لدين الله لهم بهذا الشكل؟ وبذلك تحول

العنف إلى وصفة ناجحة يمتلك بواسطتها السيد العبد امتلاكاً لا محدوداً، وعلى هذا الأساس توسعت دائرة العلاقة بين السادة والعبيد في خاصية العنف المباشر والمكشوف، وإلا كيف نفسر كثرة الفتاوى التي كانت تحاول أن تحدد العلاقة المشروعة بين السادة والعبيد في تلك الفترة<sup>8</sup>، ولا سيما أن الأندلس احتلت مكانة مرموقة كسوق لبيع وشراء العبيد.

لا جدوى من إيجاد المبررات لأن "عبد الرحمن الناصر لدين الله ليس بالبعيد من جدّ جده الحكم بن هشام في انهماكه في المعاصي والتباسه بالريب وعيئه في الرعايا واستهتاره باللذات، وتغليظ العقوبات، وتهوينه بالدماء على حد قول ابن حزم<sup>9</sup>، إذا حاولنا أن نفسر هذه الصفات التي تميز بها الناصر يجرنا الحديث إلى دور الترف والقوة في تغيير طبائع البشر؛ فالترف يؤدي بأصحابه إلى التخلق بالفحشاء، والعكوف على الشهوات، والإقبال على الدنيا، والظلم يؤدي إلى كل الصفات الدونية والطغيان والجبروت والاستهتار بالدين.

والمصادر التاريخية تلوذ بصمت مريب حول هذه الحادثة، وتمارس اللامبالاة والتهميش في حق هذه الفئة المستضعفة من الناس؛ فهم ليسوا إلا "زبدٌ جفأ وسيل غثاء، وكع وكعاع"<sup>10</sup>؛ فالعبيد بشكل عام بشر مسلوب الإرادة، ومعزولين عن ممارسة أي عمل تحت عنوان الإنسان بشكل خاص، مسلوب الذات تحت إرادة السلطة الطاغية والديكتاتورية المطلقة، ولاغرو أننا لا نجد استنكاراً أو استهجاناً لهذا الفعل من قبل الفقهاء والعلماء؛ "فأصل الداء التهاون في الدين"<sup>11</sup>.

لنتكرر فصول العقاب اللامشروع مع جارية الناصر التي تمنعت عنه وعبست في وجهه، وقامت بصدّه ونغصّت سروره؛ "فأثارت من غضبه ما أمر الخصيان من أجله بإمسакها، وإدناء الشمعة من وجهها، وإحراق محاسنها وطمسها... حتى خمشوا وأسأؤوا إحراقها، وقضوا عليها"<sup>12</sup>.

إنّ المتأمل في هذا الفعل المخزي الذي قام به الناصر، والمتمثل في الحرق حتى الموت لا يعدو إلا تعبيراً عن الاضطهاد العاطفي والحرمان الذي شعر به الناصر من قبل جاريته؛ فانتقم منها أشر انتقام؛ فاستعذب لعذابها واستطاب لآلامها ومعاناتها، وتناسى قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم "إنّ النار لا يُعذب بها إلاّ الله"<sup>13</sup>.

فهل يخضع هذا الفعل إلى مزاجية الحاكم؟ أم أن هناك نزعة سادية (sadisme) استولت على عقل الناصر في تلك اللحظة؟ وكيف يمكن لشخص سوي غير مصاب باضطرابات نفسية أو عقلية أن يتحول إلى عدواني من الدرجة الأولى ولا يكتثر حياة وآلام الآخرين؟

بالرغم من قلة الدراسات التاريخية والبحوث العلمية المختصة التي تلقي ضوءاً على العوامل الخفية التي تدفع الأفراد إلى أن يصبحوا أكثر عدوانية وشراسة وظلماً مع الآخرين، إلا أن ابن خلدون يعتقد أن العنف نزعة طبيعية إذ يقول: "ومن أخلاق البشر فيها الظلم والعدوان بعض على بعض؛ فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه فقد امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع"<sup>14</sup>، والناصر لا وازع لديه، ويؤكد حسين مؤنس ما ذهبت إليه الدراسة بقوله: "وما وصل إليه عبد الرحمن الناصر من اتساع الجاه وعظيم المنزلة جعلاه قليل الاحتمال للناس"<sup>15</sup>، والمصادر التاريخية تثبت هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة؛ فصاحب أخبار مجموعة وإن لم يفصح لنا بدميم أفعاله لكنه يلمح إليها بقوله: "إنه عفا الله عنه مال إلى اللهو، واستولى عليه العُجب"<sup>16</sup>، ولا يساورنا الشك أن رسالة الناصر كانت واضحة لبقية الجوّاري اللائي تسول لإحداهن نفسها بالتمنع أو التدلل الزائد على شخص الخليفة، وقد وردت جملة من الآيات القرآنية تصف حالة هؤلاء الناس من المجتمع بقوله تعالى "في قلوبهم مَرَضٌ"<sup>17</sup>، وهي الشخصية المريضة واللاأخلاقية من المجتمع غير المتزنة، المنقادة لتنفيذ غاياتها وأهوائها ونزواتها في إيذاء الغير دون الشعور بالذنب، والتي تتميز بعدم الثبات في العلاقات الشخصية و اضطراب في الهوية والسلوك والمزاج<sup>18</sup>.

وفي مقابل ذلك نجد صمتاً مطبقاً جراء هذه المنكرات التي قام بها الناصر، باستثناء ابن حيان الذي وصفها بقوله: "وهذا من أقبح فعلاته"<sup>19</sup>، ولم يتحرج أحد أعوان الناصر من ذكر حادثة مريعة في تلك الفترة كانت سبب استزاقه وغناه في تلك الفترة إثر امتثاله لأمر الناصر بقتل جارية له وقطع رأسها، وابن حيان كعادته يسجل لنا خيوط الحدث وبأدق تفاصيله بقوله: "وقد حكى عنه أبو عمران سيفه الذي أنظره بعدته أنه استدناه ليلة إلى مجلسه بقصر الناعورة، فوجده جالسا القرفصاء، ليثا على برائنه وجارية كالمهاة محبوسة في أيدي الخصييان إلى ناحية تسترحمه، فيرد عليها أغلظ رد، ثم قال: دونك الفاسقة يا أبا عمران، فاضرب عنقها...؛

فضربتها ضربة فأطرت رأسها، وسمعت لوقع الشفرة صليلا لم أعهدده، ولا عاينت شيئا اعترضه؛ فرفع جسد الجارية، ومسحت سيفي في نطعي وطويته وانطلقت به؛ فلما دخلت غرفتي وفتحت النطع لاح لي فيه دُرُ ثاقب فاخر النور الجرم خلاله حصباء ياقوت وزبرجد يترقق كالجمر<sup>20</sup>، إنَّ مثل هذه الأفعال المشينة تعبر بعمق عن مدى المعاناة والمآسي التي تعرضت لها تلك الفئة من الخلق من قتل وتشويه وتعذيب.

لا يطمح الباحث أن يجد أو يُقدم له إجابات أو تفسيرات لمثل هذه السلوكيات والطباع لأن مصنفات تلك الفترة كان إنتاجها محصورا في سرد تاريخ الحاكم على حد تعبير أحد الدراسات<sup>21</sup>، ولا يمكن تفسير هذه السلوكيات إلا بالعودة إلى الدراسات المتخصصة في الأبعاد الحقيقية للعنف ومثل هذه التصرفات، حيث ترى الباحثة حنة أرندت "أنَّ المرء يشعر نفسه أنه أكثر من مجرد إنسان حين يتمكن من فرض نفسه، ومن جعل الآخرين أدوات طبيعة تطيع رغبته، مما يعطيه لذة لا تضاهي"<sup>22</sup>، ومن المرجح أن هذا السيف قد سُلط على العديد من الضحايا عفت المصادر عن ذكرها؛ فعبارة "أطرت رأسها وسمعت لوقع الشفرة صليلا لم أعهدده تفضح هذا الأمر، كيف ولا وأبو عمران هذا هو سيّاف الناصر؛ فإن لم ينفذ أوامره كعادته قطع عنقه"<sup>23</sup>، ومن المفيد الكشف عن مواصفات وظيفة صاحب العذاب، والذي ينبغي أن تتوفر فيه شروط معينة كأن يكون خلوا من كل وازع ديني وخلقي، وعلى درجة كبيرة من الفضاضة<sup>24</sup>.

وقد تبّه وشجب أبو بكر الطرطوشي في إيماءة مهمة عن ديدن السلاطين لينتهي بقوله: "العجب من الملك الذي يغضب على عامله إذا خالف أمره، ثم لا يخاف هو من غضب ربه عند مخالفته إياه"<sup>25</sup>، ليظهر البون شاسعا بين المؤسسة القمعية التي أوجدها الخليفة الناصر الخاضعة لنزواته المتذبذبة المستصغرة لحرمة النفس الإنسانية وبين المؤسسة العقابية المشروعة والمعهودة في تلك الفترة.

ويبدو أن الناصر كان مصرا على أن تنتشر قوته وسياسته القاهرة وصرامته وغلظته بين العامة من الناس، وغرضه في ذلك إثبات الهيبة، وإقامة السياسة من غير الالتفات إلى ما في ذلك من إزهاق النفس التي حرمت إلا بالحق<sup>26</sup>، ولفرض تلك الهيبة قام بإرهاب وترويع العامة،

والترويع هو أعلى درجات العنف وأخطرها، فهو سلوك غير منضبط يخرج عن جميع القيم والمعايير الإنسانية ووسائل الضبط العرفية والوضعية؛ فقد قام باتخاذ "الأسود والسباع إرهابا لعذابه"<sup>27</sup>، وتجدر الإشارة إلى أن الأسود والسباع ليست من أرض الأندلس في تلك الفترة، وليس فيها أعمار ولا أنسال<sup>28</sup>؛ فهو أول خليفة اتخذها لترهيب وترويع العامة، وتعذيب المخالفين على حكمه بها، ويبدو أن السلطة الحاكمة كانت حريصة على تقديم تفسيرات لهذا العمل المقرز للنفس البشرية، وهو ترهيب المخالفين على حكمه بها؛ فابن حيان أبلغ أنه سلطها على أحد شهر خبره<sup>29</sup>، ولنا أن نتصور هول المنظر لمن وقع في شركها، ولكن حتى نكون أكثر واقعية وموضوعية وجب القول بأن المصادر تشير إلى أن الناصر قد زهد عنها آخر أيامه؛ "فالعنف قد يبرر، لكنه أبدا لن يجوز على مشروعيته"<sup>30</sup>، ومن أجل المبالغة أكثر في فرض هيبة الدولة لم يتوان الخلفاء والسلاطين في تلك الفترة في قتل فلذات أكبادهم لضرورة حفظ الملك؛ فالناصر قام بقتل ابنه عبد الله، ويعود سبب ذلك "لمتابعة أكثر الناس له لأدبه وفضله"<sup>31</sup>.

ويخبرنا صاحب تاريخ الأندلس عن الطريقة التي أنهى بها الناصر حياة ولده عبد الله سنة 308هـ/920م بقوله: "فلما أتى عيد الأضحى أمر به؛ فأخرج إلى المصلى، ثم صرّع وذبح بين يديه"<sup>32</sup>، لا يقتصر فظاعة المشهد كون عبد الله هو ولد الناصر فقط، وإنما هو اختيار عيد الأضحى اليوم المقدس للمسلمين، إن مثل هذه الواقعة في هذا التوقيت تشي بعمق مدى همجية الإحساس والتفشي والشماتة بالعامة، ولاسيما مُريدو الأمير عبد الله، وكم لها من دلالات رمزية ومعنوية على الجانب السلطوي والديني؛ فالمسلمين يهرعون في انتقاء أضحيتهم في سبيل الله عز وجل، وعبد الرحمن الناصر لدين الله جنح بفدي فلذة كبده ونخره من الوريد إلى الوريد في سبيل الحفاظ على سرير الملك وبسط شوكة السلطان.

ويبدو أنها كانت ظاهرة عُرف بها الكثير من حكام الأندلس في ذلك العصر في قتل أولادهم المنافسين لهم في السلطة؛ فقد قتل الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ابنه عبد الله<sup>33</sup>، كما فتك المعتضد بن عباد بابنه إسماعيل ولي عهده<sup>34</sup>، ولقد تفتن منظرو الأنثروبولوجيا إلى وظيفة الذبيحة في تهدئة الصراعات الداخلية والحد من الأزمات التي تهدد وحدة الجماعة

مؤكدين في ذلك على أنه "كلما تفاقم حدة الأزمة وجب أن تكون الضحية ثمينة"<sup>35</sup>، وهو بذلك يقطع كل بادرة في النهوض عليه؛ ففساد الرأي والإثم والعار، لا يعلم قبيحها إلا من كان خارجا منها، وليس يراه من كان داخلا فيها على حد تعبير ابن حزم<sup>36</sup>.

إن هذه الحقائق والمثالب التي ذكرناها للتو ليس الهدف منها إلحاق كل نقيصة بالخليفة الناصر، وإنما تروم الدراسة إقرار سلوكيات النفس البشرية في أطوارها المتناقضة، وتداعي القلوب إلى أهواء الباطل في غياب من يردعها عن هذا الزيغ والعلو بحجة "غلبة السلطان".

وعليه فإن الذهنية والسلوكية التي تنطلق منها السلطة المستبدة في اتخاذ قراراتها وطبيعة أحكامها تهدف إلى تحقيق مصالحها وطموحاتها وغاياتها وملذاتها ضاربة عرض الحائط المنطق الإنساني والعقلاني والديني الذي لا يروق لها، وبذلك يصبح العنف فضاء لتجسيد قوة السلطة، وقد وقف عالم الأنثروبولوجيا ريني جيرار حول حيثيات المسألة بقوله: "غالبا ما يوصف العنف باللاعقلانية مع أن المسوغات العقلية لا تعوزه، وهو الذي يعرف كيف يجد أفضلها حيث ينزع إلى التفجر"<sup>37</sup>، ويتفق معه في ذات السياق أحد الباحثين بقوله: "إن همجية الإنسان معززة بوجود العقل المدبر الذي يفتح أبواب الخيال الإجرامي على مصراعيه، بينما تقتصر همجية الحيوان على تمزيق الفريسة بسرعة تيسيرا لأكلها"<sup>38</sup>، ولم تتعد حنة أرندت عن هذا المعنى لسيكولوجية العنف لما قالت: "إنَّ البشر إنما يشاركون بعض أنواع ملكوت الحيوان الخصائص الأخرى كافة باستثناء هبة العقل الإضافية التي تجعل الإنسان على أي حال حيوانا أكثر خطورة بكثير من الحيوانات الأخرى"<sup>39</sup>، ومن نافلة القول أنه من السهل تدجين الحيوانات الضارية، ولكن من العسير جدا تقويم سلوكيات الإنسان الضال خصوصا إذا استحوذ على قوة السلطة.

ومن المسائل التي لا نغض الطرف عنها في هذا الموضوع قضية الصلب في فترة الإسلام؛ فمن المعروف أنَّ الأندلس كانت منطقة ثغرية يترصد بها الأعداء من الداخل والخارج وعهد الناصر عَرَف الكثير من الفتن والقلاقل حيث قام عليه الكثير من الثوار<sup>40</sup> والمفسدين في الأرض؛ فطبق عليهم الناصر عقوبة الحراة، وقبل أن نلج في طيات هذا الموضوع نتعرف أولا على المقصود بالحراة والغاية منها في الإسلام.



**الحرابة:** في الشرع هي الإفساد في الأرض بسفك الدماء أو سلب الأموال أو هتك الأعراس؛ فكل جريمة يقصد منها الإفساد في الأرض ونشر الرعب في قلوب الناس وترويع الأمنين هي من الحرابة<sup>41</sup>، ومن خلال هذا التعريف نخلص إلى أنّ الحرابة هي استخدام العنف بقصد الاستيلاء على المال وغيره عن طريق القتل، أو قطع الطريق والسطو على المارة؛ فهي أعمال وأفعال إجرامية تهدر الأمن العام وتخرق القانون، وقد شرع الله فيهم الحد بنص قرآني "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"<sup>42</sup>، وقد كانت للحرابة آثار سلبية على المجتمع لما فيها من قتل وسفك الدماء وسي النساء والذراري وقطع النسل، وتفرق الدراسات المتخصصة بين الحرابة وغيرها من الجرائم؛ ففي الحرابة لا يقصد المحارب شخصا بعينه لينتقم منه بل قصده نشر الرعب في قلوب العامة، بينما الجرائم الأخرى هي شخصية؛ فالسارق إنما يقصد ذلك المنزل والقاتل إنما يقصد الشخص بعينه لينتقم منه، ولذلك كانت عقوبة الحرابة أشد وأنكى، ولا يقبل في عفو المجني عليه لأنه حق الله تعالى<sup>43</sup>.

وقد شدد الخلفاء والسلاطين في تطبيق عقوبة الحرابة لما فيها من أذية ومطالبة العامة من تخليصهم من ظلمهم؛ ففي سنة 337هـ/948م "صلب بقرطبة علي بن عشرة، من أهل أشبونة بعد أن قطعت يده ورجلاه، وكان من المفسدين في الأرض بقطع السبل"<sup>44</sup>، وبذلك فالخليفة عبد الرحمن الناصر امتثل لمطالب العامة، وطبق حكم الله فيه؛ فكلما اشتدت العقوبة كلما ابتعد الناس عن الجريمة، وكلما خفت العقوبة كلما ازداد إقبالهم عليها، ومن هنا نفهم قيمة عقوبة الصلب بين جمهور العامة، وبين قطاع الطرق خاصة لما لها من أثر ردعي وزجري للكف عن الجريمة والإفساد في الأرض، فقد ذكر المقرئ أن الصفة الغالبة على أهل الأندلس هي "إقامة الحدود، وإنكار المتهاون بتعطيها، وقيام العامة في ذلك، وإنكارهم إذا تهاون السلطان فيها"<sup>45</sup>، ولكن الناصر هذه المرة قد استسلم لغضبه وطبق عقوبة الحرابة في غير محلها، وسلطها على جنوده الذين انهزموا في واقعة الخندق رغم محاولتهم واستعطافهم إياه وتذكيره بسابق انتصاراتهم لكنه أصمّ أذنيه على ذلك، وابن حيان كعادته يسجل لنا الحدث بخدافيره

ناقلا إياه من ثقافته بقوله: "أمر صاحب المدينة بالقبض على عشرة من وجوه فرسان الجند الذين سارعوا إلى الانهزام يوم الخندق، فتولاهم الأشرار حينهم، وشدوهم مُصلبين بأعليها، فمَثَلوا للحين بدارها يستغيثونه ويسترحمونه ويستقبلونه، وهو يزداد عليهم غيظا وسبا لهم، وقد صم أذنيه على تنصلهم واعتذارهم وتعدديدهم لسالف بلائهم؛ فلم يثنه عما عزم عليه من تعذيبهم والتمثيل بهم؛ فأمر بطعنهم والقضاء عليهم"<sup>46</sup>، ما يستفاد من هذا النص أن هؤلاء الفرسان الذين انهزموا في موقعة الخندق سنة 327هـ/938م لم تختلف عقوبتهم عن أولئك المجرمين المفسدين في الأرض؛ فقد طُبِّقَتْ عليهم أنواع مختلفة من العقوبات المتمثلة في الصلب والتعذيب والقتل، والأدهى من ذلك أنه مَثَّل وشَهَّر بهم أمام العامة، ليدخل الرهبة في نفوسهم متانسيا بذلك نهي الشريعة الإسلامية عن التمثيل بالجثث<sup>47</sup>، فعبد عبد الرحمن الناصر لم يتكلف عناء مراجعة ما عزم عليه والاحتكام إلى شرع الله وصحوة الضمير الخلقى؛ فقد عبر ابن حيان على لسان الأندلسيين عن ذلك اليوم بقولهم: "وأضحى يومنا ذلك يوم هؤل، دَعَرَ الناس دَهْرًا"<sup>48</sup>، وما هو ملفت للنظر أن الدراسة لم تقف لها على صدى لهذه التجاوزات في أفواه علماء تلك الفترة؛ ولم تجانب إحدى الدراسات الصواب لما ذهبت إلى القول بأن الإساءة للشرع يعني ضمنا الإساءة للسلطة السياسية القائمة باعتبارها حارسه له والعكس صحيح<sup>49</sup>، ولقد أخذ العنف والتعذيب صورا ودرجات متفاوتة في المجتمع الإسلامي في ظل غياب الإحساس الخلقى والشعور الإنساني.

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه حول تطبيق عقوبات جنائية في غير محلها هو هل الهدف منها هو فرض هيبة الدولة وعدم زعزعة سلطتها أمام العامة أم هي عبارة عن نزوات نفسية تستعير غضبا شغوفة بسفك الدماء؟ وهل من حق الفرد أو السلطة ممارسة سلطة العقاب بحجة الدفاع عن تصور خاص لما يعتقد أنه حق وعدل وخير؟ لا يمكن فهم المسألة بشكلها الحقيقي إلا إذا اعتبرنا أن العنف والسلطة مظهران متلازمان لا يمكن فصل بعضها عن بعض؛ "فكل سياسة إنما هي صراع من أجل السلطة، والعنف إنما هو أقصى درجات السلطة"<sup>50</sup>.

إن إثارة قضية العنف أو العقوبات اللامشروعة من قبل السلطة الحاكمة في مجتمع إسلامي كبلاد الأندلس في تلك الفترة تجرنا إلى التمييز بين الإسلام كما جاء في القرآن الكريم والسنة

النبوية الشريفة وبين الإسلام التاريخي الذي صنعه الأفراد، وقد أكد الباحثون على ضرورة "التمييز بين الإسلام الحق وتطبيقاته في الواقع العملي"، ويُعدُّ علي الوردي من المشتغلين الأوائل الذين وقفوا على تناقضات الشخصية الحاكمة المسلمة، والذي يرى أنَّ طبيعة البشر واحدة في كل زمان ومكان، والاختلاف بينهم يرجع في الغالب إلى اختلاف في تكوين المجتمع الذي ينشأون فيه<sup>51</sup>.

ولعلَّ ما يلفت النظر في هذا الصدد أنَّه فرَّق بين الحياة العملية للسلطة الأموية الواقعة تحت تأثير القيم البدوية التي كانت تقوم على الكبرياء والعصبية والاعتداد بالنسب وقوة السيف بينما كانت حياتهم الفكرية متأثرة بالتعاليم الإسلامية؛ فهم لا يسألون عما يقول الفقهاء وأهل الدين لأنَّ جلَّ اهتمامهم كان منصرفاً إلى تدعيم ملكهم بحد السيف على الطريقة البدوية القديمة<sup>52</sup>، وإنَّ جاز لنا أن نستعير تحليل الوردي للشخصية الأموية الشامية؛ فبعد الرحمن الناصر غير بعيد عن صفات أجداده في بلاد الشام؛ فقد كان خليفة أمويًا بدويًا صريحاً تسيره تقاليد الأعرابية القائمة على "الغبي والاستخفاف وركاكة العقل"<sup>53</sup> في عمل ما يشاء ما دامت القوة بيده ليطغى ويستبد متناسياً الوازع الأخلاقي والديني الذي يقوم على أساس الرحمة والعدل والمساواة، خصوصاً إذا استحضرننا مسألة أساسية لا يمكن إغفالها، وهي أنَّ الناصر كان ممن لا يحتمل أن يصل الوعاظ وأهل الدين الذين بجواره إلى قلوب الناس وبالتالي إلى مكانة تقارب مكانته<sup>54</sup>.

**خاتمة:** من خلال وقوفنا على بعض عينات العقوبات اللامشروعة التي قام بها عبد الرحمن الناصر، نخلص إلى القول أننا لا نجهد قيمة الرجل، ولا دوره العظيم في استتباب الأمن ولمَّ شمل الأندلس على سلطان واحد، وإنما الغاية من هذه الدراسة هو التعرف عن كتب على حقائق النفس البشرية في أطوارها المتناقضة القلقة والمضطربة المتسلطة من أجل فرض هيبة وشوكة السلطان في ظل تلك المصادر عن الكشف عن المسكوت عنه؛ فقد وجد بخط يده تأريخ قال فيه: "أيام السرور التي صفت لي دون تكدير في مدة سلطاني يوم كذا من سنة كذا، فعُدَّت تلك الأيام؛ فوجد فيها أربعة عشر يوماً"<sup>55</sup>.

فبعد الرحمن الناصر لم يصفو له من أيام السعادة إلا أربعة عشر يوماً من ملك بلغ خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام؛ فالحياة من دون القدرة على الشعور بالآلام الآخرين هي الجحيم بحد ذاته!  
الهوامش:

- 1- بوتشيش إبراهيم القادري، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014، ص28.
- 2- ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهذلي، مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص05.
- 3- ابن الطقطقي محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، حلب، ط1، 1997، ص47.
- 4- هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي، أمه أم ولد تسمى مؤن، تولى مقاليد الحكم في اليوم الذي توفي فيه جده الأمير عبد الله، وذلك يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة 300هـ. ابن الأبار أبو عبد الله القاضي، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ج1 ص198.
- 5- المقرئ شهاب الدين أحمد التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج1 ص366. --- 6- ابن حيان القرطبي، المقتبس، تحقيق بدر شالميط وآخرين، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد، 1979، ج5 ص109-110. --- 7- نفسه، ج5 ص37.
- 8- ابن سهل أبو الأصبع عيسى بن عبد الله الأسدي الجبالي، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تحقيق يحي مراد، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2007، ص165.
- 9- ابن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2 ص87/ابن حيان، المقتبس، المصدر السابق، ص37. --- 10- المهدي بن تومرت، كتاب أعز ما يطلب، الجزائر، 1903، ص42.
- 11- الكواكبي عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، د. ت، ص8.
- 12- ابن حيان، المصدر السابق، ص38. --- 13- البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر، ط1، 1423هـ/2002، كتاب الجهاد والسير، باب لا يُعَدَّبُ بعداب الله، رقم الحديث 3016.
- 14- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2003، ص186.
- 15- مؤنس حسين، شيوخ العصر في الأندلس، دار الرشد، القاهرة، ط2، 1997، ص70.
- 16- مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بما بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتب اللبناني، بيروت، 1989، ص137. --- 17- سورة البقرة، الآية 10.
- 18- الأتاسي محمد إبراهيم، من تاريخ طب النفس والأعصاب عند العرب والمسلمين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2015، ص80.
- 19- ابن حيان، المصدر السابق، ص37. --- 20- ابن حيان، نفسه، ص39.
- 21- بوتشيش إبراهيم القادري، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص21.
- 22- أرندت حنة، في العنف، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساق، بيروت، ط1، 1993م، ص32.
- 23- ابن حيان، المصدر السابق، ص39.
- 24- نشاط مصطفى، السجن والسجناء نماذج من تاريخ المغرب الوسيط، المجلس الوطني لحقوق الإنسان، الدار البيضاء، 2012، ص80.
- 25- الطرطوشي أبو بكر محمد بن الوليد الفهري، سراج الملوك، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، تقدم شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1994، مج1 ص97. --- 26- ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص48.
- 27- ابن حيان، مصدر سابق، ص39. --- 28- مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بويابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007، ص72. --- 29- ابن حيان، المقتبس، ص39. --- 30- أرندت حنة، المرجع السابق، ص46.
- 31- الضبيي أحمد بن يحيى بن عميرة، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق روية عبد الرحمن السويدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 304. --- 32- مجهول، تاريخ الأندلس، ص204. --- 33- ابن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2 ص88.

- 34- الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001، ج18 ص256/رسائل ابن حزم، ج2 ص88/عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط7، 1978 ص144.
- 35- جزار ريني، العنف المقدس، ترجمة سميرة ريشا، مركز دراسات الوحدة العربية، مراجعة جورج سليمان، بيروت، ط1، 2009، ص19.
- 36- ابن حزم الأندلسي، كتاب الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة النفوس وتحذيب الأخلاق الزهد في الرذائل، تحقيق إيفا رياض، مراجعة عبد الحق التركماني، دت، ص98. --- 37- جزار ريني، المرجع السابق، ص19. --- 38- العلوي هادي، من تاريخ التعذيب في الإسلام، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط1، 2004، ص64. --- 39- جزار ريني، المرجع السابق، ص19.
- 40- يشير المقرئ إلى أن عبد الرحمن الناصر "وجد الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطربة بنيران المتغلبين، فأطفأ تلك النيران، واستنزل أهل العصيان، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد تيف وعشرين سنة من أيامه". نفع الطيب، المصدر السابق، ج1 ص353.
- 41- الحيدان حمد بن علي، الصور المعاصرة لجرمة الخرابة، رسالة ماجستير، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 2011، ص21.
- 42- سورة المائدة، الآية رقم 33.
- 43- عزوز علي، مقاصد العقوبة في الشريعة الإسلامية، مجلة الأكاديمية الاجتماعية والإنسانية، العدد 7، السنة 2001، ص42-49.
- 44- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص215. --- 45- المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص210. --- 46- ابن حيان، المقتبس، شالميطا، ص466.
- 47- إن الإسلام حرم المثلة ونهى عنها؛ فقد وردت أحاديث تثبت ذلك؛ ففي حديث بريدة في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول لقواده: "اغزوا باسم الله في سبيل الله... ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا". مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق نظر بن محمد الفارياي أبو قتيبة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2006، باب الجهاد والسير، رقم الحديث 1731.
- 48- ابن حيان، المقتبس، ص446. --- 49- بولقطيب الحسين، نظام العقوبات والسجن بالمغرب الوسيط: مساهمة في دراسة "العقل التأديبي" المغربي خلال العصر الوسيط، مجلة فكر ونقد، ع 23، 1999، ص43-52.
- 50- أرندت حنة، المرجع السابق، ص31. --- 51- الوردى علي، وعاظ السلاطين، دار كوفان للنشر، لندن، ط2، 1995، ص30.
- 52- الوردى علي، نفس المرجع، ص37. --- 53- مجهول، أخبار مجموعة، ص137.
- 54- حسن مؤنس، شيوخ العصر، المرجع السابق، ص70. --- 55- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص232.